الآثار المصرية

انشأ المستر هنري ولس رسالةً مسهبة في الآثار المصرية نشرت في العدد الاخير من جريدة القرن التاسع عشر الانكليزية قال فيها ما ملخصهُ ان من اعظم مآثر القرن التاسع عشر حل رموز القلم المصري القديم الذي عُرفت بهِ حكمة المصريين القدماء . ولكنَّ الذين رأوا القبور والهياكل المصريَّة القديمة وما يلحقها من التلف والدمار سنة بعد سنة يخشون من انطماس آثارها في هذا القرن فيكون القرن التاسع عشر قد كشف عنها ستار الدهور ليلاشيها من عالم الظهور . يشهد بذلك ما قالهُ المسيو ناڤيل المتولي ادارة التنقيب في آثار تل بسطة وهو انهُ نسخ الكتابات والرسوم المنقوشة على قبر الملك ستي الاول ثم عاد اليهِ بعد مدة وجيزة فوجد ان تلك تلك الكتابات والرسوم قد طمس تمامًا وهذا الامر وامثالهُ قد دعا الكتَّاب الاوربيين الى التنديد بالاحوال الحاضرة وانهاض همَّة الحكومة الى زيادة الاعتناء بالآثار المصريَّة

واكبر متلفٍ للاثار المصريَّة في عرف كتَّاب الجرائد هم السيَّاح ولكن السيَّاح يمرُّ على الآثار مرَّ الخيال ولا سيما بعد ان صار السفر بالسفن البخاريَّة التي لا تقيم عند اشهر الهياكل المصريَّة الاَّ بضع ساعات او دقائق . وجهد ما يُنتقد بهِ على السائح انهُ يأكل في رحاب الهياكل ويترك فضلات الطعام فيها وهو امر خارج عن حدود اللياقة ولكنهُ لا يضر الهياكل . وقد ينقش اسمهُ على بعض الحجارة والاعمدة وذلك غير حسن ايضًا ولكنهُ ليس شيئًا بالنسبة الى ما فعلتهُ الحملة الفرنسويَّة التي نقشت اعمالها بحروف غائرة طول الحرف منها ذراع . وقد انهض السيَّاح همَّة بعض الاهلين الى تقليد صناعة اسلافهم الاولين فنرى ان اكثر ما يبتاعهُ السياح منهم من الخرز والجعلان لا يتدُّ في تاريخهِ الى اكثر من ثلاثة او اربعة اشهر . ولا ينكر انهم يبتاعون اشياء كثيرة من الآثار ولكن اكثرها مما لا يكون مفردًا واللوم في ذلك على النظام الحالي الذي يجبر الفلاحين على تقديم ما يجدونهُ الى الحكومة وتخويل الحكومة فرض ثمنهِ فان الفلاح اذا وجد حقَّةً وعلم انهُ يأخذ ثمنها جنيهًا من السائح الاجنبي لا يعرضها على دار التحف (الانتكخانة) ليأخذ ثمنها نصف جنيه . وقد رسخ في عقول الفلاحين ان الحكومة تثمن التحف باقل مما يمكنهم ان يبيعوها بهِ ويصعب عليهم ان يساوموا رجال الحكومة في الثمن فيفضلون بيعها للاجنبي على كل

حال وهذا يدعوهم الى اخفاء ما يجدون منها الى ان تلوح لهم فرصة يبيعونه وقد يقطعونه قطعاً كثيرة ويبيعون كل قطعة منها لسائح فيتعذر جمع قطعه معاً وتضيع فائدته . واخفاء التحف يدعو الى اخفاء المكان الذي وجدت فيه فيجهل وتفوت فائدتها التاريخية وقد يدعو الى اذابة الذهبية والفضية منها فلا يبقى منها نفع تاريخي ولا اثري على الاطلاق مثال ذلك انه منذ بضع سنين وجد الكاتب بعض النقود الذهبية البطليموسية في دكان رجل في القاهرة وهي لامعة برّاقة كانها خرجت من دار الضرب بالامس ولم يتعامل بها احد . وقد وجدت هذه النقود في الفيوم ووجد معها كثير غيرها والذين وجدوها اذابوها حالاً مخافة ان تعلم بهم الحكومة ولم يحفظوا منها الاّ النقود المذكورة . فلو كانت هذه الخبيئة ملكاً حلالاً للذي وجدها يتصرف بها تصرف المالك بملكه ويبيعها لمن يشاء كما يبيع قمحه وقوله لحفظت كلها ولم يتلف منها شيء واغتنت بها متاحف العلم والذين وجدوها ايضاً . ولا يبعد انه كان بينها نقود نادرة المثال ولم يعد في الامكان العثور على مثلها فخسر بها العلم خسارة لا تعوّض . ومهما يكن من امر هذه التحف وكل الآثار الصغيرة التي يمكن نقلها من مكان الى آخر فهي ليست المراد بالآثار المصرية عند حصر المعنى واما الآثار المصرية فهي الهياكل والقبور والتماثيل وما اشبه وهذه لا تتلف بابتياع السيّاح لبعض النقود والجعلان ولا تحفظ بمنعهم عن ابتياعها

وقد شرع الناس في اتلاف الآثار المصرية الحقيقية من ايام الملك ثيودوسيوس سنة ٣٩١ للميلاد وزاد اتلافهم لها بعد الفتح فصارت الهياكل القديمة مقالع للحجارة وبذلك خربت كل مباني منف وطمست آثارها وحتى الآن لا يزال البعض يتلمسون حجارة المباني القديمة ليبنوا بها بيوتهم او ليحرقوها جيراً وجميع الذين شاهدوا المدافن القديمة في اسيوط منذ سنين قليلة يعلمون ان الجدران الفاصلة بين غرفها قد زالت رويداً رويداً مع انها كانت منطاة بالكتابة والنقوش من اسفلها الى اعلاها وهي من ايام الدول المصرية الاولى . وكلما زاد الناس ثراء واتقنوا بناء بيوتهم وابدلوا الطوب بالحجر زاد ولوعهم اتلاف المباني القديمة وملاشاة ما لم تقدر مخالب الدهر على ملاشاته

وعلماء الآثار المصرية لا يسلمون من اللوم لانهم كثيراً ما ينقبون الهياكل ويتركون ما فيها معرّضاً لرحمة الهواء والشمس والعمال . وكثيراً ما يستعملون اعنف الوسائط في النقب حتى لقد كنا نود ان يبقى بعض ما كشفوه مستوراً تحت حجب الخفاء الى ان توجد وسائط اخرى للنقب لا يتلف بها من ان ينقب الآن ويتلف شيء منه

هذه بعض اسباب التلف ويزاد عليها ان الطبيعة نفسها تتلف المباني القديمة. واستطرد الكاتب من ذلك الى انه يجب ان تعين الحكومة رجلاً لحفظ الآثار القديمة وتعين معهُ مهندسًا وحرسًا يتولون حراستها وترميم ما يتهدَّم منها. ثم التفت الى الخلاف الذي وقع بين فرنسا وانكلترا على تعيين رئيس الانتكخانة فقال انهُ في الليلة التي توفي فيها الشهير مريت سنة ١٨٨١ صدر الامر بتعيين المسيو مسبرو خلفًا لهُ وكان ذلك بواسطة قنصل فرنسا لانهُ خاف ان يخلف مريت في هذا المنصب وكيلهُ الدكتور هنري برغش العالم الشهير بالآثار المصريَّة فتخرج ازمة هذا المنصب من ايدي فرنسا. فاقام المسيو مسبرو فيهِ خمس سنوات ثم عزم على مبارحة القطر المصري واعلم حكومتهُ بذلك فسعت في تعيين المسيو غريبو خلفًا لهُ وتمَّ ذلك على غاية السكينة حتَّى ان نوبار باشا لم يعلم بهِ مع انهُ كان حينئذٍ رئيس النظار فلما جاءهُ المسيو مسبرو ليودعهُ واخبرهُ بتعيين خلف لهُ بهت من الامر ولكنهُ عاد فادرك سرَّ المسألة

ثم لما فُتحت مسألة تحويل الدين تشبثت فرنسا بجعل مدير الانتكخانة فرنسويًّا وجعلت ذلك شرطًا لمصادقتها على تحويل الدين فلم يسع انكلترا الاَّ ان تجيبها الى ذلك لكي لاتخسر مصر ماتربحهُ من التحويل. ولكن وجود المسيو غريبو لايمنع تعيين اناس يحافظون على الآثار المصريَّة ويحفظونها من التلف لانهُ هو نفسهُ غير قادر على القيام بادارة الانتكخانة وحفظ كل الآثار المتفرقة في طول البلاد وعرضها

وقد نبَّه الكاتب بوضع الرسم على دخول الانتكخانة وعلى السيَّاح الذين يأتون لمشاهدة الآثار. ومدح المصريين الاصليين وقال انهُ لا بدَّ من ان ينهضوا عن قريب ويسترجعوا قديم مجدهم ويحفظوا ما خلَّفهُ لهم اسلافهم

هذا ومن شاء ان يعرف ما تمَّ على الآثار المصريَّة فليس عليهِ الاَّ ان يقابل ما كانت عليهِ في المئة السادسة للهجرة مثلاً وما صارت اليهِ الآن فانهُ لما جاء عبد اللطيف البغدادي الى هذه الديار في اواخر القرن السادس للهجرة كانت المطريَّة وهي المعروفة قديمًا بعين شمس وجهات سنارة وهي المعروفة قديمًا بمنف عامرتين بالآثار القديمة كما يظهر ممَّا اوردهُ في وصفها قال " ومن ذلك الآثار التي بعين شمس وهي مدينة صغيرة يشاهد سورها محدقًا بها مهدومًا ويظهر من امرها انها قد كانت بيت عبادة. وفيها من الاصنام الهائلة العظيمة الشكل من نحيت الحجارة يكون طول الصنم زهاء ثلثين ذراعًا واعضاؤهُ على تلك النسبة من العظم. وقد كان بعض هذه الاصنام قائمًا على قواعد وبعضها قاعدًا بنصبات عجيبة

وانقابات محكمة وباب المدينة موجود الى اليوم . وعلى معظم تلك الحجارة تصاوير الانسان وغيره من الحيوان وكتابات كثيرة بالقلم المجهول وقلما ترى حجرًا غفلاً من كتابة او نقش او صورة . وفي هذه المدينة المسلتان المشهورتان وتسميان مسلتي فرعون وصفة المسلة ان قاعدة مربعة طولها عشر اذرع في مثلها عرضًا في نحوها سمكًا قد وضعت على اساس ثابت في الارض ثم أقيم عليها عمود مربع مخروط بنيف طوله على مائة ذراع يبتدئ من قاعدة لعلّ قطرها خمس اذرع وينتهي الى نقطة وقد لبس راسها بقلنسوة نحاس الى نحو ثلث اذرع منها كالفمع وقد تزنجر بالمطر وطول المدة واخضر وسال من خضرته على بسيط المسلة والمسلة كلها عليها كتابات بذلك القلم ورأيت احدى المسلتين وقد خرّت وانصدعت من نصفها لعظم الثقل وأُخذ النحاس من رأسها . ثمّ ان حولها من المسال شيئًا كثيرًا لا يحصى عددها ومقاديرها على نصف تلك العظمى او ثلثها وقلما تجد في هذه المسال الصغار ما هو قطعة واحدة بل قصوص بعضها على بعض وقد تهدّم اكثرها وانما بقيت قواعدها"

اما الكلام على اثار منف فقد اوردناهُ في المجلد الثاني عشر من المقتطف في الكلام على منف الغابرة . ولو اعتنى المصريون بحفظ هذه الآثار الى الآن لوجد الباحثون فيها كنوزًا لا تقدر قيمتها العلميّة ولرأي السيّاح اقوى جاذب يجذبهم الى التجوال في هذا القطر وانفاق الاموال الطائلة فيهِ . وعسى ان ما حفظ الى الآن تهتم الحكومة الخديويّة بحفظهِ الى ادهار كثيرة

السمك الاحول

من الناس مَن اذا رأى صندوقًا لم يستطع ان يعلم من نفسهِ انهُ كان الواحًا والالواح كانت اشجارًا نامية فقطعت ونشرت وصنع الصندوق منها بل حَسب انهُ وجد من نفسهِ على اسلوب لا يدرك ومنهم مَن لا تنوتهُ معرفة ذلك لانهُ رأى النجارين ينشرون الالواح من الاشجار ويصنعون الصناديق منها او سمع وصف ذلك فصدّقهُ لانهُ رآهُ منطبقًا على العرف العام ولكنهُ اذا رأى واديًا في جبل لم يحسب انهُ كان ارضًا منبسطة او جانبًا من جوانب الجبل فهطلت الامطار وجرى السيل فجرف التراب من مسيلهِ وانقلع الصخور وجرى بها وخدّد الارض تخديدًا وتوالت السنون والسيل يعمّق